**نبذة عن المصادر الأوروبية حول تاريخ الجزائر الحديث**

إنّ المصادر الأوروبية جدّ مفيدة لفهم بعض الأحداث التاريخية و جوانب من النظم الإدارية و العسكرية، ناهيك عن المواضيع المجترّة على الدوام مثل القرصنة و وضعية الأسرى و العلاقات مع الدول المسيحية ؛ و ذلك رغم الأخطاء الّتي كثيرًا ما وقع فيها مؤلّفوها بحكم التعصّب الدينيّ، أو الجهل بلغة و تقاليد سكّان البلاد، أو الأحكام المسبقة المنافية للواقع كما نستشفه من قراءة كتاباتهم. و حسب تاريخها، أمكن تمييز هذه المصادر إلى ثلاثة أصناف :

- الأولى هي المصادر الّتي تعود للقرنين السادس عشر و السابع عشر ؛ و مع أنّ الكثير من هذه المؤلّفات تعوزها غالبًا الموضوعيّة، و تقدّم بعض المعلومات بشكل غير واضح أو مشوّه، إلاّ أنّها بالرغم من ذلك تبقى بالنسبة للباحث ذات قيمة تاريخيّة لا يمكن إنكارها. و من مؤلّفات هذا الصنف نذكر على سبيل المثال تاريخ ملوك الجزائر للأب هايدو، و رواية أسر ماسكارينياس، و رواية سبع سنوات أسر لفرنسيس نايت، و تاريخ بلاد البربر و قراصنتها للأب دان، و رواية أسر دارندا، و مرآة الصدقة المسيحيّة للأب ميشال أوفري، و الحالة الراهنة للجزائر لمؤلّف مجهول، و مذكّرات الفارس دارفيو.

كانت من أولى الرحلات الاستطلاعية الأوروبية إلى الجزائر منذ بداية الوجود العثماني فيها، تلك الّتي قام بها نيكولا دي نيكولاي الّذي زار الجزائر عام 1551 في إطار سفارة دارامون، و هو في طريقه إلى اسطنبول ؛ و كان نيكولاي جغرافيًا من أفراد الحاشية الملك هنري الثاني، حيث قدّم وصفًا - فريدًا بالنظر إلى تاريخه - لمدينة الجزائر و دلّس و عنابة ضمّنها في صفحات معدودة من كتابه (**Quatre premiers livres des Navigations et pérégrinations en la Turquie**).

إلى جانب هذا العمل القيّم، توجد أعمال الراهب دييغو دي هايدو (Diego de Haëdo) ذات القيمة التاريخية المميّزة، الّتي قدّمها باللغة الإسبانية تحت عنوان "طوبوغرافيا و تاريخ الجزائر العامّ" (**Topographia e historia general de Argel**) ؛ و اشتمل الكتاب، الّذي طبع بعد وفاة المؤلّف في 1612، على خمسة محاور : المحور الأوّل حول "طوبوغرافيا الجزائر" و الثاني تناول "ملخّصات عن ملوك الجزائر" و الثالث حول الأسر و الرابع حول الشهداء والخامس حول المرابطين (نسّاك الصوفية). و تجدر الإشارة إلى أنّ المحاور الثلاث الأولى ترجمت إلى الفرنسية خلال القرن التاسع عشر و نشرت تباعًا.

و رغم الأهمّية الّتي تكتسيها أعمال هايدو بالنظر إلى تفرّدها في ذكر العديد من الأحداث و الجوانب التاريخية، إلاّ أنّه يجب التنبّه إلى المغالطات و التشويه الّذي لمسناه في ثنايا عمل الراهب الإسباني، لا سيّما أنّه كان يستقي غالب معلوماته من روايات أسرى محرّرين لم يشهدوا الأحداث، بل وصلتهم أخبارها على شكل إشاعات أو أخبار محرّفة.

إن العمل الّذي قدّمه لنا فرانسيس نايت (**Francis Knight**) يعتبر أحد أهم الأعمال الانجليزية الّتي كتبت عن الجزائر خلال القرن السابع عشر، حيث أسر الأخير من طرف بحّارة الجزائر سنة 1631، و تكمن أهمّية هذا المصدر (**A Relation of Seven Yeares Slaverie Under The Turkes of Algeire, Suffered By an English Captives Marchant**) في كونه يؤرّخ لفترة مجهولة نوعًا ما من تاريخ الجزائر العثماني، حيث عاصر أحداث ثورة الكراغلة لأنّه كان عند نشوبها أسيرًا في المدينة ؛ و الأمر الملفت بالنسبة لهذا الكاتب، الّذي قضى مدة سبعة سنوات أسيرًا بالجزائر، قوله أنّ آلاف البحّارة المسيحيين كانوا يفضّلون الإقامة في سجون الجزائر على التعفّن في السجون اللّيفورنية، أو الموت من "الجوع والبرد، في السجون الإنجليزية".

رغم ذلك، فإنّ فرانسيس نايت لم يخفي المعاناة الّتي شعر بها مرارًا لفقد حريته، فالعبودية تبقى عبودية : "إن أهل وطني يعانون تحت عبودية القساة الأتراك، و ما عانيته أنا بنفسي كان فظيعا ؛ فقد فقدت ممتلكاتي، و سبعة سنوات من المعاناة في الأغلال على ظهر السفن الجزائرية". و قام بعده ايمانويل دارندا الفلامنكي برواية أهمّ ما وقع له خلال فترة أسره (1640-1641) في كتابه المنشور في 1662، الّذي ترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية (**Relation de la captivité et liberté du sieur Emanuel d’Aranda**)، ولم يقتصر على ذلك بل ضمّن كتابه الكثير من الروايات أو بالأحرى القصص القصيرة الّتي عرفتنا أشياء هامّة عن المجتمع الجزائري آنذاك، و عن معيشة الأسرى المسيحيين آنذاك في الجزائر العاصمة، بشكلٍ ممتع و نابض بالحياة يختلف تمامًا عن الصورة القاتمة الّتي درج الكتّاب الآخرون على رسمها في إطار الحرب بين الهلال و الصليب.

- و المجموعة الثانية من المصادر هي الّتي كتبت في القرن الثامن عشر و بداية القرن التاسع عشر قبل الاحتلال. و من بين هذه المصادر، أثارت انتباهنا مؤلّفات استند بعضها على وثائق رسميّة و تقارير قنصليّة و الّتي حوت معلومات قيّمة و موضوعيّة نسبيًّا بالمقارنة مع سابقاتها عن إيالة الجزائر، و نذكر منها على سبيل المثال مؤلّفات شاو (1720-1732)، و لوجييه دو تاسي (1725)، و فنتور دي بارادي (1789-1790)، كاثكارت (1785-1796)، و شالر (1816-1824)، و بروتون (1806-1812)، و سيمون ﭘﻔﺎيفر (1825-1830).

امتازت هذه الفترة بظهور تيار فكري نادى برفض الذهنية الموروثة عن القرنين السادس عشر و السابع عشر، أي إعادة النظر في تقييم الغير و كتابة التاريخ دون ذاتية و ترك الأفكار المسبقة و العصبية الدينية ؛ كما امتاز كتّاب هذه الفترة بمستواهم الفكري و منظورهم الجادّ و الجديد، فهم لم يعودوا أسرى أو آباء الفداء فقط بل أصبحوا عملاء، باحثين، مغامرين، و كان منهم الدبلوماسيين والعلماء، و كذا رحّالة وفدوا إلى الجزائر بمحض الإرادة.

و من الكتّاب الذين تبنوا تلك الأفكار، لوجييه دي تاسي الّذي انطلق من فلسفة إنسانية تساوي بين البشرية في كامل العالم ؛ و يعتبر مؤلّفه (**Histoire du Royaume d’Alger avec l’État présent de son gouvernement, de ses forces de Terre et de Mer, de ses revenus, police, justice, politique et commerce**) محاولة لإعطاء نظرة جديدة عن الجزائر، و هو ما عبّر عنه كما يلي : "ستغمرني سعادة كبرى إذا استطاع كتابي أن يقدّم نفعًا للدول الأوروبية المتعاملة مع الجزائر، و إذا نجح في القضاء على الادّعاء غير العادل الناتج عن تعصّب مبالغ فيه ضدّ كلّ ما/من هو تركي". و عليه، قام هذا الدبلوماسي بإعطاء صورة منصفة عن الدولة الجزائرية في تلك الحقبة.

و من أشهر الرحّالة خلال الفترة المذكورة، نذكر الكاهن ثوماس شاو الّذي كان كاهنا بالقنصلية الإنجليزية في الجزائر من عام 1720 إلى 1732. إذ استطاع شاو أن يقدم عملا بارزًا بعنوان "**رحلات في عدّة أقاليم ببلاد البربر و الشرق**"، في جزئين تضمنا أوصافا دقيقة نوعًا ما و تفاصيل عن بلاد الجزائر، و خاصّة عن ريفها و منتجاتها و آداب سكّانها ؛ كما تضمّن النزر اليسير من المعلومات عن الحياة السياسية و الإدارية.

و يعدّ الدكتور شاو من الدارسين و الرحّالة الّذين حاولوا التحدّث عن الجانب الجغرافي و الانساني للبلاد الجزائرية خلال النصف الأوّل من القرن المذكور، إذ رسم خريطة وضّح عليها معالم جغرافية و طبيعية، و ربطها بمعلومات مستقاة عن الجغرافيين القدامى، كما حدّد بها حدود إيالة الجزائر، و خاصّة حدود بايليك الشرق الجزائري.

و بتكليف من أكاديمية العلوم، زار ﭼﺎن أندري بيسونال الشرق الجزائري خلال عامي 1724 و 1725 ؛ و قدّم عملاً هامًّا عن الجزائر، تضمّن هو الآخر – على غرار مؤلّف شاو - معلومات جغرافية و طبيعية و اجتماعية قيّمة.

أمّا بروس الّذي تولّى مهام قنصل لتمثيل بلده إنجلترا في الجزائر سنة 1768، فقد قدّم رواية في خمسة أجزاء تبدو قليلة الأهمية بالنسبة إلى تاريخ الجزائر العثمانية و لكنّها تبقى مصدرًا هاما في خدمة هذا التاريخ.

و من جانب آخر، لدينا فرنثيسكو خيمينيث (مولود عام 1685)، و هو من الآباء البيض الإسبان الثالوثيين الذي زار وهران بعد أن استرجعتها الإيالة أوّل مرّة من إسبانيا (استولت إسبانيا على وهران عام 1509، ثمّ استرجعتها السلطة العثمانية عام 1708 إلى غاية عام 1732 خلال عهد الباي مصطفى بوشلاغم ؛ لتعود مجدّدًا لإسبانيا عام 1732. و أخيرًا، استرجعها الباي محمد الكبير نهائيًا عام 1792). و قدّم المذكور ملاحظات هامّة عن الجزائر و وهران خلال رحلته إليهما الّتي دامت من عام 1717 إلى 1720، حيث دوّن أعماله في سبعة مجلّدات، خصّص ثلاثة منها لهذه الرحلة، و الأربعة الأخرى خصّصها لتونس، كما عرض فيها معلومات نادرة عن ظروف الأسرى المسلمين في إسبانيا ؛ و قد تحادث مع الباي مصطفى بوشلاغم في هذا الموضوع. و سعى لبناء مستشفى في وهران، و لكن الباي رفض هذا الطلب. و لم يمنعه هذا الرفض من تقديم معلومات كثيرة، منها ما تعلّق برغبة هذا الباي في دفع بعض الأسرى إلى اعتناق الإسلام، بل أن الباي حاول أن يجعل أحدهم خزندارًا ؛ و هو الأمر الّذي تكرّر بعد ثلاث أرباع قرن مع الباي محمد الكبير حين أسند مهام وظيفة الخزندار إلى الأسير الفرنسي ثيدنا. و كانت أعمال خيمينيث من المصادر الهامّة الّتي وظّفها جان أندري بيسونال فيما قدّمه عن الجزائر من معلومات تاريخية.

و بالمقابل، فإنّ أعمال فنتور دي بارادي بالنسبة لتاريخ الجزائر العثمانية هي ذات قيمة عالية، و قد نشرت على حلقات في المجلة الإفريقية. لقد زار هذا الترجمان المستشرق الجزائر عام 1788 و إقامته الّتي دامت حوالي سنتين سمحت له بأن يقدّم عملاً بعنوان "ملاحظات حول الجزائر" (Notes sur Alger)، لكنّه بقي غير منشور طيلة قرن تقريبًا، حتّى تكفّل ادمون فانيان بنشره. تضمّن الكتاب الّذي صدر تحت عنوان "الجزائر في القرن الثامن عشر" معلومات قيّمة عن هذا البلد، من بينها ما يتعلق بالجزائر العاصمة الّتي قال عنها أن بها 16000 بستان و حديقة، و بها 5000 مسكن بما فيها 180 مسكن لليهود، و قدّر عدد سكّانها ما بين 25 إلى 30 ألف نسمة، و قال أنّ العدد قد يصل إلى 50 ألف ساكن بالنظر إلى عدد النساء الّلواتي لا يخرجن من البيوت (6000 كراغلة، و3000 تركي، و7000 يهودي و2000 أسير و32000 من العرب "المور"). و هذا العمل يعد من المصادر الأساس لدراسة تاريخ الفترة العثمانية في الجزائر.

و يوجد رحالة آخر عالم طبيعي متخصّص في النبات هو ديفونتين الّذي تجوّل في بلاد الجزائر ما بين عامي 1783 و 1784، حيث زار كلا من الجزائر و معسكر و تلمسان، و ترك لنا رواية عن سفره إلى هذه المناطق، حيث سمحت له حماية الحكومة المحلية بإتمامها صحبة صانع ساعات من دوفينه الّذي خدم البايليك مدة عشرين سنة، و هو شخص أشار إليه ثيدنا السالف الذكر في مذكّراته.

و يعتبر عمل ديفونتين وثيقة هامّة لمعرفة أنواع النبات و الركائز في الغرب الجزائري، فهي ذات أهمّية خاصّة تنضاف إلى أدب الرحلات و يمكن أن تقارن بما قدّمه ثيدنا في نفس الإطار.

و من جهته، اهتمّ الألماني سيمون ﭘﻔﺎيفر (ولد سنة 1806) الّذي أسره رجال الإنكشارية في اليونان نقلوه إلى أزمير، ثمّ نقل إلى الجزائر برفقة عدد من العبيد عام 1825، على متن سفينة حربية جزائرية يقودها علج إنجليزي يسمّى عمر ؛ و بعد 25 يوما استغرقتها الرحلة من أزمير إلى الجزائر وجد ﭘﻔﺎيفر نفسه في بيت الخزناجي الخاصّ، حيث اشتغل سنتين في مطبخه يتولّى مختلف الأعمال المنزلية، ثمّ أصبح طبيبه الخاصّ، فأتاح له هذا المركز الجديد أن يطلع على كلّ ما يجري في المدينة و ما حواليها، و ذلك بفضل علاقته المباشرة بعدد من الشخصيات من داخل القصر و خارجه ؛ و من هنا جاء كتابه حافلاً بالوقائع و الأحداث التاريخية، الّتي يتعذّر العثور عليها في مصدر آخر. لقد حاول الكثير ممّن أرّخوا للحملة الفرنسية أن يتحدّثوا عن أوضاع الجزائر الداخلية، و لكن ما كتبوه عنها لا يتعدّى إشارات عابرة، الّتي تبدو تافهة إذا قورنت بالصورة الّتي يقدّمها لنا ﭘﻔﺎيفر، و هذا بغضّ النظر عن خلوّها من النظرة الموضوعية في أغلب الأحيان. المهمّ دام أسره في الجزائر خمس سنوات، حتّى أعيدت له حريته أيّامًا قبيل سقوط الجزائر. و اتّصل بعد ذلك بباي التيطري بومزراق، فعيّنه خزنداره مدة أسبوعين، قبل أن يقرّر التخلّي عن منصبه حين عزم الباي على محاربة الفرنسيين، فترك الجزائر يوم 16 سبتمبر 1830، و بعدها عاد إلى بلده ألمانيا، و كتب و نشر عام 1832 مذكّراته بعنوان "**رحلاتي و سنوات أسري الخمس في الجزائر**" (**Fuenfjaehrige gefangenschaft in Meine reisen und meine Algier**) ؛ وفي 1833، نشر ملحقًا له بعنوان "**وصف دولة الجزائر وسكّانها**" (**Beschreibung des staates Algiers Nebst den Bewohnern desselben**). و تمّت ترجمة الكتاب و ملحقه إلى العربية من قبل أبو العيد دودو، بعنوان "**مذكّرات جزائرية عشية الاحتلال**" واضعًا في متناول الباحثين مصدرًا يعتبر من المصادر الهامّة في تاريخ الجزائر أواخر العهد العثماني بها، و بداية الاحتلال الفرنسي لها.

و نفس الشيء تقريبا حدث مع مواطنه الألماني فندلين شلوصر الّذي ارتحل إلى البرازيل للبحث عن عمل في المناجم لكنه عاد إلى ألمانيا و منها توجّه إلى فرنسا ثمّ إلى الجزائر و انضمّ إلى فرقة عسكرية أجنبية تحت أوامر الجيش الفرنسي، و في شهر أبريل سنة 1832 ألقى عليه أهالي جزائريون القبض بالقرب من الجزائر العاصمة و باعوه إلى الشيخ الثائر ابن زعموم و منه سلّم إلى شيخ الطريقة القادرية بالأخضرية و هو علي بن عيسى، ثمّ نقل إلى بايلك الشرق و انتهى به المطاف أسيرًا في قصر الحاج أحمد باي حيث بقي مدة خمسة سنوات تولّى خلالها مناصب كثيرة كان آخرها العمل في المدفعية للدفاع عن المدينة ضدّ الفرنسيين الّذين هجموا عليها عامي 1836 و 1837. و قد ضمّن هذا الألماني مغامراته في كتاب قيّم ؛ و على غرار التأليف السابق، قام أبو العيد دودو بترجمته إلى العربية ليصدر بعنوان "**قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837**".

- و المجموعة الثالثة هي المصادر المتأخرة الّتي كتبت في بداية الاستعمار الفرنسي للجزائر مثل برثيزان، ﭘﻠﻴﺴﻴﻴﻪ دي رينو، ﭬﺎلسن استرهازي، جوشرو دي سان دوني، ألبير ديفو، أدريان بربروغر و غيرهم كثيرون.

و تكمن أهمّيتها في أنّ عددًا منها اعتمد على وثائق رسمية أو روايات شهود عيان عاشوا الفترة الأخيرة من العهد العثماني، لكن مع ذلك تجدر الإشارة إلى ميل جلّ المؤلّفين - على اعتبار كون معظمهم ضبّاط عسكريين أو إداريين، إن لم نقل كلّهم - إلى تسويد صفحة الوجود العثماني ؛ و هذه المقاربة المغرضة لتاريخ الجزائر تندرج في إطار الخطوط الّتي رسمتها المدرسة التاريخية الفرنسية لتبرير الغزو الفرنسي الّذي "هبّ لنجدة الأهالي و تحريرهم من ربقة الأتراك الظلمة"، و التخفيف قدر الإمكان من الفظائع الّتي ارتكبوها خلال توسّعهم العسكري في البلاد و عمليات التهدئة.

أ. محرز